

قنينة، في البحر

ربما تكون مرسولة من سفينة غارقة منذ زمن بعيد قد تفصح لنا عن أسرارها، ولكن الحقيقة وكما يبدو هي أنها مجرد قمامة بلاستيكية ليست لها أية قيمة.

إنها في طريقها إلى الاندثار فبعد أن خدمت منذ ولادتها هاهي تتبع مصيرها نحو المزبلة تنتقل من حاوية إلى أخرى رفقة منبوزين آخرين، إلى أن التقطتها المحيطات متدرجة بين الأمواج وهي في طريقها نحو الألف سنة (أليس هذا هو متوسط عمر البلاستيك)، لكي تنتهي رفقة أشلاء محملة هي أيضا بذكريات مماثلة، تحت شمس خادعة. هاهي اليوم تتلاشى وهي تلامس الكائنات المائية لتلوث بدورها شيئاً فشيئاً مياه البحر وكل النظام البيئي، وفي خضم صراعها مع الأمواج والرياح تذكرت القنينة...

فجأة عادت بذاكرتها إلى ذلك المكان الذي سيقت إليه في يوم من الأيام وهي تنتقل من يد إلى يد وتترقب دون جدوى حناناً أخوياً ربما يحميها من الغثيان. لقد كانت جد معتزة لأنها منتوج عمل موجه للاستهلاك، ألم تصنع من أجل ذلك؟ نعم تتذكر القنينة ولادتها في مصنع كما لو كان باستطاعتها الافتخار بالتقدم التكنولوجي الذي سمح بخلقها حتى تسهر على راحة مستعمليها فيما بعد مساهمة في المغامرة الاقتصادية لعصرنا.

ورغم أنها ليست خبيرة إلا أنها سمعت بالأزمة، وبظاهرة الاحتباس الحراري الذي يهدد البيئة ويعرض الحياة والصحة للخطر.

إلا ان كل هذه الذكريات تبدو الآن بعيدة ومبهمة أمام دورة الزمن الذي هي من ورثته....

أليست هي انعكاس لتحكمنا في الطاقة، وبالأخص المرتبطة بالتربة، ألم تعط معنى وقيمة للمحاصيل الفلاحية بحفظها من أجل الاستهلاك الغذائي....

فرغم بساطتها تمت برمجتها للاستعمال السريع ضمن مجتع استهلاكي كانت في يوم من الأيام تنتمي إليه محددة لنفسها المكانة التي تليق بها وهي تزعم الحكامة التي قد تفكر فيها قنينة مثلها.

لقد حكمت لها صديقتها كيف أن شاباً من ذوي الاحتياجات الخاصة نجح مع رفاقه في تجاوز إعاقته بابتكار مشبك مصمم بثلاثة أبعاد يمكنه من فتح القنينات. إنها معجزة

"قنينة"، إنه اسمها، تتساءل عن تسميتها في لغات أخرى، مؤنث أم مذكر؟ ربما محايدة؟ في هذه اللحظة ولأول مرة تتخيل أن هناك لغات ربما لا تعرف هذه الكلمة و لم تعرفها من قبل... هذا أمر يزعجها، كيف تملء اللغات هذا الفراغ؟

من هنا تستوعب بأن ما تقوم به منحها بالإضافة إلى هويتها، معنى وشكلا.

هل تضمن هكذا مكانها في معجم العصر؟

ترد بالإيجاب وبكل اعتزاز، أليست وهي المعروفة عالميا، معلمة رائعة شاهدة على العصر، تجسد المسيرة نحو التقدم إلى الأمام. شيء غريب، أثناء حديثها عن التقدم خيل لها أنها رأت طائرة بدون طيار تطلق في الفضاء، طائرة بدون طيار في هذا المكان المهجور؟ إنها في الغالب هلوسة، أقنعت القنينة نفسها انها ضحية تهينات، فرجعت لتوها إلى تأملاتها.

لو كان لها أن تكتب مذكرات لقصت دون ملل عن العوالم الغريبة التي قطعها بحرا و برا مرورا بوديان وجبال وغابات وحواضر.

إن ما سيثير دهشة الكثيرين هو أنها عبرت أيضا الحدود بين الدول... مكتشفة عدم التكافؤ و التفاوت في الغنى والفقير، وعولمة التبادل الثقافي الذي تلمسه بكل تأكيد كل المتلاشيات.

من يدري ربما تساهم القنينة في تحليل رؤيتنا للعالم، فقد أنجزت القنينات أشغالا ذكية تعكس الموهبة اللامحدودة لمستعملها

مر زمن طويل منذ أن صمم المهندس نموذجا لها، فوق مكتبه، جمالية أشكالها ومنحنياتها الرقيقة، كانت تمدها بالثقة اللامتناهية بأنها سوف تغزو العالم. المستقبل إذن لها. لم تفكر في المخاطر، فأى نوع من الكوارث يعد بعيدا عنها وغير محتمل... إلا أنها اليوم تجد نفسها جد ضعيفة محكوم عليها بالتفتت في هذا المحيط المائي الذي لا يليق بها...

تتساءل القنينة: هل كانت ستعيش بشكل آخر لو أنها خبرت من قبل؟ هاهي تفكر في هذا الكوكب الهش كما لو أنها تستبِق الخطر المتزايد الذي يهدد كل الكائنات مثلها وكذا المخلوقات والكائنات البشرية . تحس بداخلها وبكل مكوناتها تتحلل، إنها تتويج ونهاية لقصة النمو والمساءلة الحتمية للذات... إنها مجرد قنينة في البحر غير أنها تتساءل ماذا سيكون آخر تحرك لها وماذا بقي لها أن تنجز وأن تنجح فيه. ألم تنه عقدا لا أمل في تجديده؟ من يستطيع تحمل هذه الوضعية الغريبة؟

نعم تحس القنينة بالغبن و هي وحيدة، بודהا لو توصل للعالم ما تحس به فتنادي بالوعي الجماعي اليقظ أمام المشاكل التي يتفرد بها هذا العصر والتي تحتاج إلى حلها بسرعة، ليس هناك أعقد من هذا بالنسبة لقنينة تموت فوق قارة ليس لها وجود، لم توجد بعد.

مؤكد أن الأجيال القادمة لن تسمع أبدا عنها.

مستعدة أن تمنح الكثير لتغيير هذا، لتساعد الكائنات الجامدة والحية وكل العالم على تفهم أن علينا التخلي عن بعض الأشياء وإعادة التفكير في نماذجنا التربوية. ولكنها عندما تنظر حولها تكتشف أن كل هذا مجرد طوبوية، طوبوية قنينة - بلاستيك - في عرض البحر لا تستطيع إثارة أية مسؤولية ولا إيقاظ أدنى ذكاء. العناصر المكونة تم رميها، والقرارات اتخذت، إنها في وضع يخول لها تأكيد ذلك، لو كان بإمكانها العودة إلى الوراء، تفكر القنينة، ولكنها سرعان ما تكف عن التفكير في ذلك فهي تعرف حق المعرفة أنه لا رجوع إلى الوراء، ولو كان متاحا فيجب بالتأكيد توقع هذا التشابك على أمل تعايش أحسن...

فجأة توقفت القنينة، وبخلاف كل التوقعات، أمسكت بها يد، لا تستطيع التصديق ولكن لا مجال للشك فهي تحس بدفئ التواصل الذي جعلها تحب هذا العالم. وبتسارع مفاجئ بدأت ترجع شريط حياتها: رسوم المهندس، تصميم شكلها، صناعتها ثم معمل التعبئة، رواق المتجر حيث تم اقتناؤها، الأفراح الكبيرة في البيت، مسلسل وضعها في القمامة، كل المحطات في طريقها للتعرف على المحيط الشاسع -

ثم سمعت صوتا لم تلتقطه منذ زمن بعيد:

" أنظر من أين أنت؟ " " مدهش - نموذج جيد خذها..."